ليتني ولّيته

قصة جديدة بقلم ألفت الأدلبي

كان الهدوء يشمل الغرفة الأنيقة ذات الأرائك المغلفة بالسجاد العجمي الفاخر . وقد اتكأ على إحداها سليم بك ملتفاً بردائه الفضفاض ، يدخن لاهياً وهو يقرأ في مجلة مصورة ، فاذا سئم القراءة أزاح نظارتيه عن عينيه ونظر يميناً من النافذة العريضة ليسرح بصره بعيداً بعيداً في مشهد لا تمله العين ، ولا تزهد فيه النفس ، حيث دمشق قد انبسطت وادعة بمآذنها الرشيقة ، وقبابها الضخمة وقد احاطت بها اشجار خلف اشجار ، وفي افقها البعيد لاحت جبال زرق محدودبات كالتلال .

فاذا اكفهر الجو كما كان في ذلك اليوم ، بدت الجبال في الأفق البعيد كقطع غيم كبيرة دكناء هبطت من السماء فاتصلت بالارض .

وقد جلست امام سليم بك على الأريكة المقابلة ، زوجه جادة في حياكة ثوب صغير من الصوف لتقدمه هدية لحفيدتها في عيد ميلادها .

وبينما سليم بك يقلب المجلة إذ وقع نظره على صورة امرأة جميلة ، وضعت للاعلان عن عطر جديد فاخر . وكانت الصورة تشبه زوجه في صباها كل الشبه . فأزاح نظارتيه عن عينيه ، وتأمل زوجه ملياً ثم قال بنغمة مغبوطة :

— الله ، الله يا زمن ! !

فرفعت رأسها ونظرت اليه مستفهمة فقال لها :

— لشد ما غيرتك الأيام !! كنت في صباك كمثل هذه تماماً .

وأراها الصورة . فتناولتها من يده وتفرست فيها ملياً ، ثم قالت متبرمة :

— ومن لم تغيره الأيام ؟ . ألم تغيرك انت ؟ . كم أود لو آتيك بمرآة لأريك وجهك كم يبدو رائعاً تحت طاقية الصوف التي تدلّت حتى شحمتي اذنيك .

فأجابها وقد لاحت على شفتيه ابتسامة شامتة :

— ولكن ليس هناك ما يؤسف عليه ، لأنني ما كنت جميلاً في يوم من الأيام . اما انت . . فمن كان يصدق ان شعرك الفاحم سيغدو هكذا ناصع البياض ، وان بشرتك الناعمة الموردة ستصبح يوماً ما كامدة مجعدة .

فصمتت برهة ثم قالت :

— ولكني لا أنكر على الأيام التي نالت من جمالي انها حسّنت خلقك كثيراً . لكم كنت في شبابك سيء الخلق . ولكم تساءلت كيف استطعت احتمالك ، فما كنت والله لتحتمل!

فأجابها على الفور :

— ولكنك لا تنكرين ان شيخوختنا سلام ووئام . فمن يدري ؟ لعله كان بين جمالك وسوء خلقي علاقة . . والدليل على ذلك انهما ذهبا ببعضهما .

قالت : تعساً لها من علاقة ! أهذا كل ما جنيته من جمالي ؟! وها هو ذا قد ولى وكأن لم يكن .

وأراد ان يزفه عنها قليلاً فقال :

ولكني لن أنساه . فما زلت اذكر كما ترين شعرك الفاحم وبشرتك الموردة .

قالت : — وانا كذلك ما زلت اذكر تصرفك السيء معي فصلاً فصلاً . وان أنس لا أنس يوم حرمتني من عرس ابن عمي أتذكر تلك الليلة اللعينة ؟.

قال : — وكيف لا اذكرها ؟ ليلة ارتديت ذلك الثوب الأسود الذي يكشف عن ذراعيك ، وصدرك البراق ، ونصف ظهرك المصقول . لقد بدوت فيه والله ليلتئذ كحوريات الجنان .

قالت : ومع ذلك لم تشفق على حورية الجنة ! بل تركتها تبكي طوال الليل . كنت حينما ظهرت امامك بالثوب الرائع حسبتك ستؤخذ بجمالي ، فاذا وجهك يكفهر ، وتقول لي : « أنا لا اسمح ابداً ان تظهري في الحفلة هكذا كنصف عارية . ولما أصررت على الذهاب هجمت علي ، واخذت تمزق الثوب وهو على جسمي إرباً إرباً . حتى جعلته كومة على الأرض ، وانا أكاد أجن ، وانت لا ترحم جزعي . لله ما كان اقساك !.

قال : — لقد مضى على هذا الحادث ثلاثون عاماً . ووالله العظيم لو أحصيت المرات التي ذكرته فيها لأربت على المئات . ولو عرفت السبب لعذرتني .

قالت : — ومن كان يمنعك عن ذكر هذا السبب الخطير؟

قال : كانت تمنعني كبرياء الشباب . كنت أربأ بنفسي ان اظهر امامك بمظهر المولع الغيور . وها هي ذي الأيام قدذهبت بالشباب وبكبريائه فيما ذهبت ، ولذا تجدينني ابوح لك بالسبب غير مبال :

« لقد كنت ادرك إعجابك بابن عمك ، وافتتانه بك . وكم كنت تتأنقين امامه . ولاحظت انك بدأت تستعدين لحفلة العرس قبل موعدها بكثير . وأظنك قد بذلت حينئذ من الجهد في سبيل تجميل نفسك اكثر مما بذلت العروس نفسها . لتفوزي عليها وتحتفظي بمكانتك في قلب ابن عمك . وما كنت من البلاهة لأدعك تحققين مأربك . ألم أكن على حق في تمزيق الثوب الذي دفعت ثمنه باهظاً ؟ ؟

قالت بحماسة :

ـ اعوذ بالله ! من اين لك هذه الفكرة الخاطئة ؟ وكيف سمحت لنفسك ان تفكر فيها ؟ لقد كنت والله واهماً وكم عكرت اوهامك علينا حياتنا !.

وقالت في نفسها : « يا له من ذكي قارح . وكم اتعبني ذكاؤه ودهاؤه . لعله كان يدرك ما يجول في خاطري قبل ان ادركه انا . »

ثم عاد فقال لها :

ـ مهما غيرت الأيام يا عزيزتي من شكل المرأة ، فهي لا تقوى ابداً على تغيير طباعها . فهيهات ان تعترف بالواقع ، أو ان تبوح باسرار قلبها ولو بعد حين .

وكأنما ارادت تغيير مجرى الحديث فيما يختص بابن عمها فقالت له :

ـ ها انت ذا قد وجدت مبرراً لتصرفك يومئذ . ولكن هناك مواقف كثيرة لا دخل لابن عمي فيها فما عذرك فيها ؟

قال : اذكري لي واحداً منها .

قالت : لقد نسيتها .

قال : انت تنسين ؟ أعوذ بالله ، ان لك لذاكرة عجيبة تحفظ الشر وتنسى الخير .

قالت : الخير ؟. وهل هناك خير لأذكره ؟!

ثم أردفت قائلة : ها أنا ذا قد تذكرت واحداً منها : يوم أمّ دمشق ذلك المغني المصري الشهير . واخذ الناس يتهافتون على سماعه . وذهبت انت مع الذاهبين . ولما عدت من الحفلة ، كنت تلهج معجباً بصوته الجميل . ثم قدمت لي تذكرة من تذاكر الصفوف الامامية لأحضر في الغد الحفلة التي سيحييها للسيدات . وكم افرحتني لفتتك الرقيقة يومئذ . ولما حان موعد الحفلة عدت الميّ تقول ان خالتك مريضة ومن الخير ان ادع الحفلة واذهب معك لعيادتها . ولما ابيت عليك ذلك احتدمت غيظاً وتناولت التذكرة فمزقتها إرباً إرباً . وصفقت الباب وذهبت وتركتني وحدي أندب سوء حظي . لكم كنت اخشاك . لماذا لم اشتر تذكرة غيرها ولم اذهب على الرغم منك لأرى ماذا كنت تصنع ؟ يا لي من غبية بليدة !

فأجابها هازئاً :

ـ وهل تجدينني ايضاً مسؤولاً عن غباوتك وبلادتك ؟ وأذكر انه كان لتصرفي آنئذ مبرر ايضاً . فما كدت اقدم اليك التذكرة حتى بان الفرح على وجهك ، ثم قمت الى المرآة فحللت شعرك ، ثم بللته ثم فرقته خصلاً ، ثم أتيت بخرق بالية لم أدر من اين لممتها ، ثم اخذت تكورين كل خصلة وحدها وتربطينها بالخرقة حتى إذا فككتها بالغد اصبح شعرك مجعداً . فصار

رأسك عجيب الشكل ، وجلست امامي طول السهرة تؤذين بصري بمنظرك البشع فسكتّ على مضض . ولما كان الغـــد . وعدت من عملي ، كانت الخرق ما زالت على رأسك ، فأنت لا تفكينها إلا قبل موعد الحفلة بدقائق . وزيادة عـــلى ذلك طليت وجهك بمعجون اخضر كريه الرائحة ، من خصائصه ان يضفي على البشرة رونقاً عند ازالته ، فتساءلت في نفسي أذاهبة هي لتسمع الغناء وتطرب له ؟ ام لتظهر جمالها ؟ وفطنت انك مدحت مرة امامي شكل المغني المصري ، وشعره الكثيف ، وفوديه الطويلين اللذين يقلد بهما فناني الغرب . وتذكرت ايضاً كم كنت حريصة على جمع اسطواناته وخاصة ما ندر منها مهما غلا ثمنه . فوسوس لي الشيطان وكان مني ما كان .

فقالت في نفسها : « اما الآن فقـــد اخطأ التقدير . فوالله ما شغلت بالمغني ابداً . وما تأنقت إلا لأني نويت ان انصرف من الحفلة باكراً فأزور ابن عمي . »

ولكنها قالت له :

— اعطيك كل الحق لغيرتك منه . فأنا اهـوى الأصوات الجميـــلة ، وصوتك أجش منكر ، وأعجب بالشعر الكثيف ، وانت أصلع من يوم عرفتك .

قال ضاحكاً : من يوم عرفتني ؟ انا والله نسيت متى بدأت افقد شعري .

قالت بسخرية لاذعة :

— أغلب ظني انك ولدت اصلع ، وعشت اصلع !.

فأجابها :

— انت اليوم لا تكفين عن سخريتك مني . ولكني اتقبل منك كل شيء ما دمت قد اعطيتني الحق ولو مرة واحـدة في العمر . واعترفت لي ببعض ما يجول في نفسك . ولكن وقد مضى ما مضى ، دعيني اسألك بالله ، وقد عهدتك رفيعة الذوق ، ما الذي اعجبـك بهـذا المغني السمج البارد ، الذي لولا صوته لما كان يساوي شيئاً ؟

قالت : انه والله كما تقول تماماً . وانا نفسي غيرت رأيي فيه لا سيما عندما رأيته يمثل رواية سينمائية .

ثم قال لها وقد تملكه زهو واعتزاز :

— أرأيت يا عزيزتي أن مكر النساء الذي يجوز على غيري من الرجال ما كان ليجوز علي ابداً ؟

فأجابته وقد جهدت في اخفاء ابتسامة طفرت على شفتيها :

— طبعاً وكيف يجـــوز على من كان في مثل ذكائك ودهائك ؟ ان الزوج الذي يكون على شاكلتك تكون زوجه دائماً سيئة الحظ !

قال : قد تنتهي الحياة ولا تنتهين انت من ندب حظك !

وقال في نفسه : « انها والله طيبة لا تشبه غيرها من النساء وقد ظلمتها باتهامها بابن عمها . وها هي ذي قد اعترفت لي صراحة باعجابها بالفنان المصري ، ثم عن تغييرها رأيها فيه . »

ثم عاد فتناول المجلة ، ووقع نظره مرة ثانية على عنوان العطر فقال :

— تباً لهذه الصورة ! لقد نبشت بيننا ما كان مدفوناً .

ثم اشعل لفافة . ونظر يميناً من النافذة العريضة فسرح بصره بعيداً بعيداً في المدينة الخالدة التي تحوطها أشجار خلف أشجار ، وفي أفقها البعيد تلوح جبال زرق محدودبات التلال .

وعادت هي الى حياكتها ، ولما انحنت لتتناول كبة الصوف من على الطاولة الصغيرة التي أمامها ، بدا وجهها على صفحتها المعدنية المصقولة ، كامداً ، مجعداً فتمتمت بلوعة :

— يا ليتني ظللت كما كنت جميلة ، فاتنة ، ولو أنه ظل كما كان سيء الخلق ... *

دمشق **الفت الادلبي**

* من مجموعة قصصية بعنوان « قصص شامية » تصدر قريباً في دمشق.

صدر الكتاب الذي سيقرأه كل مواطن عربي

ويعمه تحت وسادته

المواطن توم بين

قصة رجل الذي نشأ في الوحـــل والقذر ، والذي أشعل نار الثورة الاميركية ، والفرنسية ، وكاد يشعلها في انكلترة ، والذي عمل للعدالة الاجتماعية اكثر مما يعمـل جيش بكامله .

تأليف : هاوارد فاست

ترجمة : منير البعلبكي

احجز نسختك — دار العلم للملايين